دراسات فى الفن

المـــــرأة والابداع الفنى

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

قبل أن أقول كلة فى هذا الموضوع أحنى الرأس طويلاً بين يدى حواء ، فمهما تكن فإنها أمى ، والأم لا تنكر إذ قد ينكر الأب ، وإنها بعد ذلك أختى ، والأخت لا تنكر إذ قد ينكر الأخ ؛ وإنها منذ كنت سكنى ... رحمانك يا رب !

* * *

وبعد فإنه يخيل إلىّ أنى قد استطعت — بعون الله — فى حديثى السابق أن أغرى القارئ بالتفكير معى فى أمر الصدق ولزومه للفن ، وإنى أرجح أن تفكيره لم يعد يرى بأساً فى أن نجعل ما بين الصدق والفن من الصلة أساساً للنظر فى صلة الفن بالناس . فالصدق لا يقوم بذاته إلا فى الوجود المجرد ، ولكنه يحتاج إلى من يتجسده فى الكون المحسوس كما يحتاج إلى من يمثله فيه ، والإنسان بعض ما يتجسده ، وهو وحده الذى يمثله بهذا الأسلوب المفهوم المعقول . والإنسان كما هو ظاهر رجل وامرأة ، فأيهما كان أقرب من الصدق كان أقرب من الفن . وأيهما كان أقرب من الفن كان أقرب من الصدق .

أما الذى يسجله التاريخ القديم والحديث فهو أن عدد الرجال الذين أبدعوا فى فنون الحس والعقل على الإطلاق أكثر من عدد النساء اللواتى أبدعن فى هذه الفنون . فإذا نحن سايرنا منطق الحساب فإننا سنشهد مجبرين بأن الرجل أقرب إلى الصدق من المرأة .

ولكن الذى تعودناه من معاملة حواء لا يجيز لنا أن نمسك بهذه الدعوى وأن نتعلق بها وأن نقف عندها متسلطين لا نتزحزح عنها ولا نتجلى ، وإنما يأنف الذوق من هذا ويأبى إلا أن نخف عن هذه الدعوى إلى شىء مما يتلوها ، فنقول : لعل طبيعة المرأة فى الأصل كانت تكاد تشبه طبيعة الرجل ، ولكنها الحياة التى تمردت على الطبيعة بهذه الحضارة هى التى عصفت بالمرأة دون الرجل وللمرأة عندئذ عذرها إلا إذا أنكرت تكوينها ، ولها فيه من القوة ما حُرِمه الرجل . كما أن لها فيه من الضعف ما يرى منه الرجل .

قد يتعاشق رجل وامرأة . أما الرجل فيهفو إلى محبوبته ، وأما هى فيكون فى نفسها أن تطير إليه ولكنها تتمنع ، فلا يرى الرجل بداً من أن يخطو هو الخطوة الأولى . فإذا أحست المرأة إشفاقه من هذه الخطوة وتردده عنها أغرته بها ودفعته إليها وشجعته عليها ، ولكنها لا تسمح لنفسها بأن تخطوها لأنها لا تعرف الصلة بينها وبينه إلا على وجه واحد ، وهو أن تلقى عليه أعباءها . وهى مع رغبتها هذه تأبى إلا أن تسجل عليه خطوته الأولى ، وإن كانت هذه الخطوة بإغرائها وتشجيعها ، وهى تفعل هذا كله لتبرر فيما بينه وبينها بهذه الحركات الظاهرة دلالها عليه وتحكمها فيه بعد أن ملكت منه رغبته إليها أولاً ، وخطوته إليها ثانياً . فكأنها التى تفضلت بانقيادها ، وكأنما كانت تريد أن تعيش على بعد من الرجل

صحيح أن من الرجال من يستطيع أن يتماسك أمام المرأة ، وأن يمضى معها فى صراع المنازلة إلى أقصى ما تريد من فنون المنازلة ، ولكن صحيحا أيضاً أن كثيرين من الرجال لا يلبثون أمام المرأة إلا ريثما ترتجف أرواحهم فإذا هم يتطايرون عبيراً وشذى ، وإذا هم فنون من الأنغام والصور والشعر والحكمة : فى هذه الفنون أودعوا العفة والشوق ، وبها ازينوا وتبرجوا كما يفعل بعض إخوانهم ممن يخادعون المرأة بقوة أبدانهم ، وممن يستهوونها بجاههم وأموالهم

والرجل صريح فى كل ضرب من ضروب الغزل هذه ...
ولكن المرأة — لا نقل كاذبة — وإنما نقول متحفظة

والتحفظ إبهام ولو ستر وراءه الصدق

وما لنا نتجشم الدخول إلى نفس المرأة ، وهذه مظاهرها أمامنا واضحة ؟ !

أما ترى المرأة تعنى بشئون بدنها أكثر من عنايتها بشئون روحها ؟ بل إنها إذا صفت روحها سخرت هـذا الصفاء لنعمة جسدها ، وحسبته فى أسباب أناقتها كأنه زى من أزيائها ... فكثيرات هن المغنيات والراقصات والممثلات اللواتى يغزلن من فنونهن شباكا يقتنص بها الأغنياء والشبان الوارثين ، وغيرهم ممن يشترون الجمال بالمال بينما لا يفعل مثل هذا من الرجال الفنانين إلا قلة نادرة شاذة

ثم ن هذا التجمل الذى تدمنه المرأة لا يخرج عن أنه تكلف وأنه شىء يشبه الكذب ، فهذا المسحوق الأبيض الذى تذره المرأة على وجهها لتقول به إن بشرتها بيضاء ناعمة ليس فيه من بياض بشرتها ولا من نعومتها شىء وإنما الأبيض الناعم هو . وهذا الدهان الأحمر الذى « تلطمه » على وجنتيها لتقول به إنها حمراء الخدين ليس فيه من حمرة خديها شىء وإنما الأحمر هو ... وهذا الطلاء القرمزى الذى تسفكه على شفتيها لتقول به إنها قرمزية الشفتين ليس فيه من شفتيها شىء وإنما القرمزى هو ... وهذا الشد الذى تربط به خصرها لتقول به إنها نحيلة الخصر إذا انفك ارتاح خصرها فإذا هى كما خلقها الله لا كما تقول بشدها. وهذا «الكعب» العالى الذى تركبه وتمشى به كما يمشى «البهلوان» على الحبل لتقول إنها سمهرية القد تخلعه فى وحدتها فإذا الأرض تبلع منها مقدار ما كانت « تتطاول » بكعبها العالى ...

والرجل لا يفعل شيئاً من هذا ، ولكن المرأة تفعله — ولا نقل إن المرأة به كاذبة — وإنما نقول إنها متأنقة

والتأنق تمويه ولو ستر وراءه الصدق

فهل لا تصلح المرأة للفن إذن وهى غارقة فى تحفظها وتأنقها هذين ؟ الواقع أن كلا من التحفظ والتأنق يخنق الفن

أما التحفظ فإنه يخنق الفن لأن الفن دائماً يبدأ فى نفس الفنان ، فليس هناك فنان تغنى بعواطف الناس قبل أن يتغنى بعواطفه هو ، وليس هناك أديب كتب عن الناس قبل أن يكتب عن نفسه ، فإذا لم يكن قد كتب من نفسه فلا بد أن يكون قد فكر فيها قبل أن يفكر فى غيرها من النفوس لأنها أقرب النفوس إليه كما أنه لا بد أن ينساب منه حين يكتب من الآخرين ما يدل عليه وما يستطيع القارىء أن يحكم به على ما يحب وما يكره . ولا ريب أن الوصول إلى ما يحبه المرء وما يكرهه لا تتلوه إلا خطوة قصيرة يقف بعدها المستطلع أمام نفس هذا المرء وجهاً لوجه . وليس هناك رسام ينشر فى الناس صورة إلا وهو يضمن هـذه الصور جميعاً ما يتجذب إليه من الألوان والأشكال ؛ فهو يدل بذلك على ذوقه ونواحى الراحة التى تطمئن إليها روحه ما دام يرسم مختاراً غير مجبر

وهكذا الفنون جميعاً تعلن بصراحة ووضوح عن نفوس أصحابها . زد على ذلك أن الفنون الفذة العبقرية تحتاج إلى جهاد يمارسه — فى أغلب الأحيان — أولئك الذين تتملكهم رسالاتهم الفنية فيشعرون أن الإنسانية قد استدارت حولهم لجعلتهم نواة لحلقة جديدة فى سلسلة الرقى الحسى والفكرى الذى ترقاه . وهذا الجهاد وما يصاحبه من ألوان الكفاح وصنوف الحرمان والتعذيب الروحانيين أو البدنيين يستلزمان من الصبر والعزيمة والقوة والمجالدة والإعراض عن مباهج الدنيا ما لا تطيق المرأة الخفيفة الرقيقة أن تحمله .

فهى بين التحفظ الذى أنشأه عندها الضعف ، وبين هذا الضعف الجديد إزاء الحالة العبقرية الطارئة فى ضعفين يثقل معهما التكليف بالفن أو يكاد يتعذر، فلا هى قادرة أن تكشف عن روحها فإذا فعلت فإنها عاجزة عن المضى فى حياتها وهى روح عارية .

فإذا لحظنا أنه قد شاعت بين النساء أزياء تكشف عما ولت المرأة تحجبه من الأعين دهوراً من الخجل والخفر ، وإذا لحظنا إلى جانب هذا أنه لما تذع بين النساء الصراحة حتى اليوم ولا يرج بينهن الصدق ، وأنهن ما يزلن ينخلن من يروق لهن القول ومن يزيف عليهن الحق حتى بطلعن ، إذا لحظنا هذا وذاك أدركنا أن المرأة تعتقد بإيمان كامن فى نفسها أن جسمها خير من روحها ، وأنها لو أظهرت من جسمها ما أظهرت فإنها لن تصيب الأعين بالقذى ، على العكس من روحها التى تدثرها بالغموض والتحفظ خشية أن تحسب عليها خلجات نفسها

فلماذا تفعل المرأة هذا ؟

أفي نفسها شر مرهب تخيف تتقي أن ينفضح ؟ !

لا أحسب هذا ، وقد يكون كل ما في الأمر أن المرأة متحفظة وأنها تحب ألا تعلن إلا ما يسر الرجل ، ولما كانت تربط حياتها بحياة رجل واحد إما أن يكون في الغيب فهي لا تدري ما الذي يعجبه وما الذي يغضبه ، وهي لهذا تشد النزوع الفني في نفسها حتى لا ينفر منها أحد ، وحتى يقبل عليها كل من يريد أن يتعرف بها فعندئذ تريه ما يرضيه هو لا ما يرضيها هي ، وإما أن يكون تحت سمعها وبصرها ، فهي تسقيه من خمرها ما طاب له لا ما اعتصرته من نفسها

هذه هي حال المرأة الضعيفة المتحفظة

ويشبه هذا حالها في تأنقها واصطناعها الزينة وفنون التجمل فهذا التأنق ينساب من بدنها إلى روحها ، والتأنق لا يخلو من التصنع والتكلف ، وهما يباعدان ما بينها وبين الفن الصادق الصحيح إنما أحبت أن تدنو من الفن . والأناقة — كما هو معلوم — لها أزياء تتشكل وتتطور على مر الزمن ، وهي تخضع في تشكلها وتطورها للذوق العام الذي تدنيه بين الناس مؤثرات معقدة متعددة يخضع لها المتأنقون خضوعاً لا يرضاه الفنان ولا يستطيع أن يأخذ به لأنه يحب دائماً ألا يفعل إلا ما يقتنع به هو نفسه وهو يستقي سر إقناعه من نظرته للأشياء ومن تجربته الخاصة ، ومن مقدار الراحة واللذة اللتين يرفق إليهما ... والمثل الذي يردده المتأنقون هو قولهم : « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » بينما الفنان — ما دام قادراً — لا يأكل إلا ما يعجبه ، ولا يلبس إلا ما يعجبه أيضا جرياً على نهج الحرية والصدق الذي يسلكه في حياته

فإذا فرضنا أن المرأة استقامت إلى الفن فإنها في أغلب الأحيان لا تنعم نفسها وفاء لهذه الاستقامة ، وإنما هي تبعثر من إخلاصها في حقل التأنق مثلما تبعثر منه في حقل الفن ، فهي إذن موزعة الجهد مشتتة الروح ، وفنها إذن لا يعدو أن يكون صورة أنيقة لرى من أزياء الفنون الرائجة التي يتحدث الناس بجمالها أو التي اتفقت كثرة من الناس على استحسانها ، وهذا هو السبب في أنه لم يكد يحدث أن خطت امرأة خطاً جديداً في لوحة الفن لا لشيء إلا لأن المرأة متأنقة ، والأناقة لها قاعدة تبيح للمتأنق أن يبتلع ما يعجبه ، ولكنها لا تبيح له أن يظهر أو أن يتظاهر إلا بما يعجب الناس

وقد يرد عليّ نصير من أنصار المرأة فيقول إن من النساء الفنانات من لهن أسلوب فني خاص بهن كممثلات السينما المعدودات في الصف الأول بين الممثلات — والسينما اليوم هي المجال الفني الذي تزاحم فيه المرأة الرجل — وقد يضرب لي نصير المرأة هذا المثل بجريتا جاربو التي يعتبرونها ممثلة السينما الأولى في العالم ، فإن لها من غير جدال أسلوباً خاصاً بها في تمثيلها ، كما أن لكل واحدة من الممثلات البرزات أسلوباً خاصاً وإلا ما احتسبت بين الممثلات البرزات

قد يقال هذا ، ولكن الرد عليه قريب . وهو لا يكلفنا أكثر من أن نقف عن جريتا جاربو تمكنها من الإبداع الفني الذي يسر لها أسلوبها الخاص بها في التمثيل ، فنحن إذا راجعنا تاريخها لفتنا فيه ذكر ذلك المخرج السويدي الذي لطفت عنده جريتا فأحبها واستدرجها إليه بسطوته الفنية ، ثم جاء العالم بها ولها هذا الأسلوب الناعس الجديد في التمثيل

قد تكون جريتا ناعسة في نفسها ولكنها لم تجرؤ على الظهور في زيها النفسي الصادق إلا برعاية رجل ومعاونته وتشجيعه ، ولا ريب أن هذا الظهور قد خدش في نفس جريتا جاربو تحفظ الأنوثة وتأنقها ؛ ولا ريب أن هذا الخدش هو الذي يحملها دائماً إلى التهرب من المجتمعات وإلى حياة العزلة والغموض التي عرف عنها أنها تميل إليها ، وأنها تشتريها بالمال الكثير ، فهي إذن قد جزعت من الناس عند ما ظهرت لهم على حقيقتها لأنها كانت تحب أن تخفي هذه الحقيقة ، ولأنها كمن تؤمن بأن التأنق على ما فيه من التكلف خير من الصدق والحق

ولهذا أيضاً اضطربت حياة جريتا الغرامية ، فهي قد أصبحت تعتقد أن الرجال قد وقفوا على حقيقة نفسها ، وعلى مسالك عواطفها ، فهي لذلك تشك فيمن يتقرب إليها بالهوى وإن أقبلت على واحد منهم فربما تشعر أنه قد ملك من نفسها عندئذ تفيق ولا ترضى

أن تؤمن بأن عاشقها هذا يحبها حباً صادقاً ، وإنما تحسبه كالنساء التي إلى روحها مدخلاً هو ناحية الضعف في نفسها

كل هذه الحيرة ، وكل هذا الشك ، وكل هـذا القلق ، لم يعتور نفس جريتا إلا لأنها جزعة نادمة على ما كشفت من نفسها ، فهي تسمح للرجوم جون جلبرت بأن يتقدم نحو روحها حتى يتسلط عليها فتشك فيه وتبغضه من حبه وتهجره ، ثم لا تلبث أن تمثل مع رامون نوفارو فتحبه وتحس أنه يحبها ، فما تحس هذا حتى تفر منه وتهجره

خبل ما بعده خبل ... أحدثه في نفس المرأة الصدق ، وكان حق الصدق أن يفيض بها طمأنينة ودعة

فهل يمكن أن يقال بعد هذا إلا أن الصدق ضريب على طبع المرأة ؟!

وما دمت قد ذكرت جريتا جاربو ، وذكرت بها السينما ، والسينما — كما قدمت — هي المجال الفني الذي تزاحم فيه المرأة الرجل ، فإني أرى نفسي ميالاً إلى الوقوف عند مشاهدة لا ريب أنها تؤيد ما أذهب إليه من تباعد المرأة عن روح الفن الصادقة ... تلك هي أنه لم يحدث أن تصدت للاخراج في السينما ولا في المسرح حتى اليوم امرأة . وإن كان ذلك قد حدث فإنه لا بد أن يكون قد حدث في حالة واحدة أو حالتين أو — على الأكثر — حالات لا يمكن أن تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة ...

والإخراج في التمثيل — كما يحتاج إلى إلمام ميكانيكي بقواعد الفن ، فإنه يحتاج إلى أبلغ النفاذ إلى روح الفن ومعانيه ومراميه ، وهو لا يقوم إلا بذوق مستقل خاص يتجلى في الطابع الفني الذي يتميز به المخرج ؛ هذا زيادة على ما هو لازم للمخرج من صدق الخبرة بالنفوس والحياة ، وصدق الحكم على الفن والفنانين ، لأنه بهذه الجرأة الصادقة ، وبهذا الحكم الصادق وحدها يستطيع أن يبرز روايه ، وأن يوزع الأدوار فيها ، وأن يضمن خروجها وهي أقرب ما يكون العرض الفني من الحياة الطبيعية ، وأصدق ما يكون في التعبير عما أراده مؤلف الرواية ، وأبلغ ما يكون من تصوير عواطفه وأحاسيسه ، وأوضح ما يكون من تحديد أفكاره ومراميه ...

هـذا العمل الفني الجليل المعقد التشعب لم تجرؤ النساء على الاقتراب منه حتى اليوم ، ولا ريب أن الذي يحول بينهن وبينه هو شيء في طباعهن ، فإنهن أنفسهن لا يستطعن أن يدعين أن الرجل — وعلى الخصوص في ميدان السينما الحر الطلق — يسوق سبيلهن أو يحد من مطامحهن .

وأخيراً ... فلعل القارئ قد لفته مثلما لفتني ، أن المبقريات من النساء اللواتي شذذن على هذه القاعدة التي رسمناها اليوم فيهن من الرجولة ملامح منها ما هو ظاهر في أبدانهن ، ومنها ما هو كامن في أرواحهن ، ولست أريد أن أذكر من أعرفهن بالأسماء فقد يكرهن هذا لبقية باقية من الأنوثة في نفوسهن ، وإن كنت لا أحب أن أدع حواء قبل أن أعود فأحني الرأس طويلاً بين يديها متوسلاً إليها أن تجرب — إذا استطاعت — الصدق .

عزيز أحمد فهمي

كان ذلك أمنية بعيدة المنال...

أما الآن وبعد ما بجح العالم الحديث في اكتشاف أسرار المستحضرات الجسم وقدم لنا عدة أنواع من الصابون باسم لولو تيطس فقد صار في قدور كل أنثى تستعمل قوى شبابك المفقودة استعمال هذا المستحضر الذي لولو تيطس يعمل تحت رقابة مستمرة من معهد الناسليا الشهير بمدينة برلين . لكي تقف على مزايا هذا الصابون يجب أن تطالع كتاب "الحياة الجديدة" الذي يمكنك الحصول عليه مجاناً باللغة الفرنسية أو الانجليزية أو الروماني برسم ذات ستة ألوان أو باللغة العربية . أرسل المبلغ طوابع بريد الى جلا نهورمين — صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر اقتضوا كل علبة غير مكتوب عليها : تعبئة خاصة للشرق جرعتين